البريد رسول التواصل الانسانى

د .حسن فتح الباب

المبحث الاول

البريد رؤية ورؤيا

تجتاز البشرية الآن المرحلة الثالثة من تاريخ تطورها بدءا من الثورة الصناعية ووصولا الى ثورة الاتصالات مروراً بالثورة التكنولوجية ، فها هى الحدود والقيود بين الدول والشعوب تتلاشى كأن لم تكن حتى أصبح العالم على إتساعه الشاسع قرية صغيرة بفضل التلفزيون وشبكة الاتصالات العالمية (الإنترنت) . وأخترق الإنسان قانون الجاذبية الأرضية ودخل فى عالم الفضاء منذ رحلة جاجارين الذى حقق حلم عباس بن فرناس ، ولم يبق إلا أن يطير بجسده دون آلة يمتطيها مثل الطيور ، لتتواصل الأرض والسماء ، ويعمر الادمى الأكوان بعد أن عبر الآفاق شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وحقق أمنيته بالتحليق من التراب إلى السحاب .

ولكن الأرض كانت وستظل هى الرحم والمهد ، وسيظل ابنها أكثر عشقا لها من عشقه الفضاء والتجوال فيه لأن من غرائزه الجوهرية التواصل والإخاء بين البشر بعضهم وبعض فوق التراب الذى خلقوا منه وسيعودون اليه ، فهذا التراب هو الذى يوحدهم فتحميهم وحدتهم من غوائل الكائنات المحيطة بهم سواء أكانت من الوحوش الضوارى ام من بنى جنسهم من الاشرار ، وليستطيعوا ان يتعايشوا ويحققوا مصالحهم . قال الله تعالى (يا أيها الذين امنوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) . وقال الشاعر القديم :

الناس للناس من بدو وحاضرة
بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

ويتحقق هذا الإخاء بطرائق مادية ومعنوية تتمثل الأولى فى عدة وسائل من أهمها البريد الذى يضرب بجذوره فى اعماق التاريخ فى الحرب والسلم ، عن طريق الحمام الزاجل الذى يملك البصر فيرى البعيد مثل زرقاء اليمامة ، وتهديه البصيرة الى غايته المنشودة . وهكذا يستخدم الإنسان هذا الطائر لتحقيق مأربه وهو التواصل مع المرسل اليه .

وقد كان الهدهد كذلك يحقق هذا التراسل أيضا عن طريق الجان ، وتلك هى المعجزة التى أفاءها الله تعالى على نبيه سليمان بن داود ، إذ سخر له الجنى الذى حمل فى غمضة عين الملكة بلقيس من اليمن إليه وهو فى فلسطين أرض الأنبياء . قال تعالى فى سورة النمل عن قصة الهدهد رسول سليمان إلى بلقيس : (وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين) وتتوالى الآيات حتى قوله تعالى على لسان سليمان مخاطباً الهدهد : (اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون) . وفى الآيات التالية ذكر لقيام أحد الجان بدور عامل البريد إذ حمل إلى سليمان رسالة إلى بلقيس ملكة سبأ .

أما الوسائل البريدية غير المادية فهى الرسائل الروحية والإشارات الإلهية التى يتلقاها عباد الله الصالحون ومنهم كبار المتصوفين من الذات العلية والتى يبعثونها إليها ، وتتم عن طريق الكشوف الكونية التى تحدث عنها ابن عربى والحلاج وابن الفارض ورابعة العدوية . وهى رسائل تحقق التواصل بين البشر وخالقهم العظيم . ولعالم الاجتماع الراحل الدكتور سيد عويس كتاب فريد فى موضوعه ، وهو الرسائل التى يوجهها البسطاء من أهل القرى والمدن إلى أولياء الله الصالحين وهم يزورون أضرحتهم التماسا لشفاعتهم لهم حتى يحقق الله سبحانه وتعالى مصالحهم كشفاء المريض وحمل العاقر وإغاثة الملهوف .

بريد الطير

ومن أهم الوسائل البريدية الروحية الرسالة التى يرسلها الطير من محب إلى محبوبه حسب تصور الشعراء ، للتغلب على محنة الفراق والوصول إلى اللقاء الروحى ما دام لقاء الجسدين لم يتحقق . وقد عبر ابن الرومى عن هذا التلاقى الروحانى فى نهاية المقطوعة الآتية

أعانقها والنفس بعد مشوقة — إليها وهل بعد العناق تدانى
وألثم فاها كى أبرد غلتى — فيزداد ما ألقى من الهيمان
كأن فؤادى ليس يشفى غليله — سوى أن يرى الروحين تلتقيان

والعلاقة بين الشعراء والطيور سمتها عروة وثقى تجمع بينهما ، فكلاهماعاشق مرهف الإحساس إذ يحن الطائر إلى وكره وأليفه ، كما يحن الشاعر إلى المكان الذى كان يلتقى فيه مع حبيبته وفى ذلك يقول مجنون ليلى قيس بن الملوح :

أمر على الديار ديار ليلى — أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى — ولكن حب من سكن الديارا

والشاعر تهيج شجونه اذا سمع تغريدا شجيا لطائر ، إذ يخيل إليه انه يشكو مثله ألم فراقه

الفضاء . ومن أرق القصائد التراثية المعبرة عن تلاقى الشاعر والطائر وتقاسمهما لوعة البعاد قصيدة أبى فراس الحمدانى التى كتبها بعد أن أسره الروم معبرا عن تعاطفه مع حمامه سمع نواحها من وراء جدران محبسه ، وكأن هذا النواح رسالة إليه كى يطارحها ويقاسمها وجده فأجابها :

أقول وقد ناحت بقربى حمامة — أيا جارتا لو تعلمين بحالى
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا — تعالى أقاسمك الهموم تعالى

وفى العصر الحديث بعث شوقى برسالة بريدية روحية إلى حمامة تخيلها تناشده أن يواصلها ويراسلها فقد ألفيها فقال :

حمامة الأيك من بالشجو كارحها — ومن بجنح الدجى فى الليل ناداها ؟

ذلك لأن الشاعر القديم وبعض الشعراء المحدثين أيضا لم يكونوا يملكون طائرا زاجلا يحملونه رسائل الشوق والحنين إلى أحبائهم ، فأودعوا هذه الأشواق الطيور السابحة فى السماء لنقل رسائلهم ، كى تلتقى الأرواح بالأرواح وتنصهر فى بوتقه الحب ، أو هم تصوروا طيورا تقوم بهذه الرسائل ما دامت الأرض قد ضاقت على وسعها فى وجوه المحبين ، فلم تكن بريدا بينهم . فلجأوا إلى الطيور لقدرتها على إبلاغ رسائلهم عبر الفضاء المترامى دون حدود ولا سدود ، فحملوها أنفاسهم الحرار التى تضطرم بالشوق إلى الغائبين لكى تصل عبر أجنحة الطيور إليهم عابرة المسافات الشاسعة ، مبتهجة لأنها نقلت أجمل بريد بين الأرواح الظامئة .

وما ارق الأغنيات التى صيغت بالفصحى والعامية معبرة عن تواصل الأحباء عن طريق الطيور ، ومن ذا الذى لا تشجيه أغنية (الورد) لبيرم التونسى - لحنها الشيخ ذكريا احمد وشدت بها أم كلثوم ومطلعها الورد جميل جميل الورد ، وقد تحول هذا الزهر الجميل إلى حامل بريد بين أهل الهوى يتبادلونه ليطفئ نار أشواقهم ، ومثل هذه الأغنية فى سمو المضمون وهو التواصل وجمال اللحن والأداء الأغنية التى شدت بها ليلى مراد فى أحد أفلامها وهى تهدى الورد الى العشاق باعتباره رسولا بينهم ، ومطلع هذه الأغنية (مين يشترى الورد منى وأنا بنادى واغنى) . وثمة عديد من الأغنيات الأخرى التى صيغت بالعامية مصورة الطيور باعتبارها رسول بين العشاق ، ومنها أغنية الطيور التى لحنها محمد القصبجى وترنمت بها أسمهان كانيا فى عذوبتها وسحرها طائر عاد من الفردوس إلى الأرض حاملا بريد المحبة بين البشر بعضهم وبعض وبينهم وبين سائر المخلوقات .

وأشهر الطيور التى تنقل رسالة السلام هى حمائم الحمى التى تطوف حول الكعبة ، واليمامتان اللتان باضتا على باب غار ثور لتضليل المشركين الذين كانوا يطاردون النبى وصاحبه أبا بكر حين هاجرا مكة قاصدين يثرب ، والحمامة التى أبدع تصويرها بيكاسو وعلقت على جدران الأمم المتحدة باعتبارها رمزا ورسولا للسلام.

بريد النسيم

ومثلما يحمل الشعراء رسائلهم البريدية الروحية إلى أحبائهم عن طريق الطير يحملون تلك الرسائل النسيم ولا سيما ريح الصبا . ويحفل الشعر وهو فن العربية الأول بأجمل القصائد والمقطوعات والأبيات التى تعبر عن هذه الريح الطيبة التى تهب من الشرق مصافحة هؤلاء الشعراء العشاق وهم محرومون من لقيا من يحبون ، فتثير وجدانهم وتهيج مشاعرهم فيسكبون دموعهم ويترنمون بالأشعار التى تطفئ لهيب الوجد الذى يستعر فى أحشائهم . ومنهم الشاعر القديم الذى يقول :

ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد ؟ — لقد زادنى مسراك وجدا على وجد

والشاعر مهيار الديلمى الذى يقول :

الصبـــا إن كان لابد الصبا — أنها كانت لنفسى أروحا
فاذكرونا مثل ذكرانا لكم — رب ذكرى قربت من نزحا
واذكـروا صبا إذا غنى بكم — شرب الدمع وعاف القدحا

فالذكرى عند هذا الشاعر رسول بريدى معنوى تخيله كى يصور شوقه إلى أحبائه بعد أن صافح نسيم الصبا فذكره بمن يهوى ولا يجد إليه سبيلا . و لمهيار قصيدة أخرى يذكر فيها نسيم الصبا وريح الخزامى إذ يمران على منازل أحبته كما يذكر المزن وهى السحب المطيرة إذ تهطل عليها ، ويتخيل أنها جميعا معطرة برائحة هؤلاء الأحبة ، ومن ثم يناشدها أن تبلغهم سلامه فيقول :

بكر العارض تحدوه النعامى — فسقاك الرى يا دار (اماما)
وتمشت فيك أرواح الصبـا — يتارجحن بانفاس الخزامى
و إذا مغنـــى خـــلا من زائـر — بعدمـا فارق أو زيـر لماما
فقضـى حفظ الهوى أن تصبحى — للمحبيـن مناخـا ومقـامـا
أجتـدى المـزن ومـاذا أربـى — أن تجـود المزن أطلالا رمـاما
وقليـلا فيـك أن أدعو لهـا — مـا رانـى الله أستجدى الغماما

ثم يناشد جيران أحبابه أن يحملوا نسيم الصبا عبيرا منهم حتى إذا هب عليه هذا النسيم استنشق عطرهم ، فشعر أنه التقى بهم من خلال هذا الرسول الأمين الحانى على العشاق ، وكأنه

كى يستطيع أن ينام بعد أن برح به الشوق إليهم :

وابعثوا أشباحكم لى فى الكرى إن أذنتم لجفونى أن تناما

ومن ثم فقد زاوج مهيار الديلمى بين نسيم الصبا وبين الطيف فى قصيدته بوصفهما رسولين بريديين بين العاشقين . ومن الأشعار التى تغنت بريح الصبا قول البحترى فى قصيدته التى رثى بها الخليفة العباسى المتوكل على الله وكان حاضرا مقتله :

محل على القاطور أخلق دائره وعادت حروف الدهر جيشا تغاوره

كأن الصبا توفى نذورا إذا انبرت تراوحه أذيالها وتباكره

ومناجاة الطيف ليكون رسول البريد بين الشاعر العاشق وأحبابه وتر مشدود فى قيثارة شعراء الغزل ولا سيما العذر بين منهم ، ويسمون الطيف أحيانا الشبح كما رأينا فى شعر مهيار ، أو الخيال كما نرى فى قصيدة مروان بن أبى حفصة التى يمدح بها الخليفة المهدى إذ يستهلها بقوله :

طرقتك زائرة فحى خيالها بيضاء تخلط بالجمال دلالها

وقد تغنى الشعراء العرب منذ أقدم العصور بالطيف ، فتمنى الشاعر الولهان أن يزوره حاملا إليه أجمل بريد ، ألا وهو صورة المحبوب ، طالما قد عز عليه أن يلقى شخصه . فالطيف معادل موضوعى للجسد لأنه مضمخ برائحته الزكية التى تروى ظمأه . كما أن الطيف رمز للحضور الذى يخفف من لوعة الغياب ، ورائد على درب التواصل والرائد لا يكذب أهله . فالمحب من خلال الطيف الذى يزوره يتماهى مع محبوبه .

بريد النيل

وما لنا نذهب بعيدا فى الحديث عن النسيم والطير والطيف بوصفها حاملة رسائل بريدية معنوية بين الخلان والأحباب ، فى حين أن أمام أبصارنا يجرى نهر النيل منذ القدم حاملا إلينا رسائل فى صورة هدايا هى الماء وهو مصدر الحياة ، كما كان يحمل إلينا قبل بناء السد العالى الطمى وهو مصدر خصوبة الأرض . وقديما قدس أجدادنا نهر النيل وكانوا يعتقدون إنه ينبع من السماء وكان المصرى القديم يقسم يوم البعث انه لم يلوثه . وقد تبارى الشعراء قديما وحديثا فى الترنم بالنيل الذى وهب مصر كما قال المؤرخ الاغريقى هيرودوت ، وكان رسالة إلهية اليها أنشأ حضارتها وخلدها فى العالمين .

ومن هؤلاء الشعراء شوقى فى شعره الفصيح وفى شعره العامى الذى صاغ منه قصيدة (النيل نجاشى) ، ومحمود حسن إسماعيل الذى أبدع قصيدة فى وصفه مطلعها (مسافر زاده الخيال) وكما نرى فى مطلع قصيدة تأبط شرا اذ يقول :

يا عيد مالك من شوق و ايراق ومن خيال على الاهوال طراق

بريد القطار والمركبه :

لا غرو ان يكون القطار فى مقدمة وسائل الاتصال البريدى ، وان يقوم بمهمته خير قيام منذ اخترعه المهندس البريطانى ستيفنسون حتى اليوم ، وقد كانت مصر هى ثانى دولة فى العالم يستخدم بها القطار ، إذ كانت محتلة من الانجليز فركبوا بها قضبان السكة الحديدية ، وأجروا عليها القطارات لتحمل القطن إلى بلادهم حيث يحولونه إلى نسيج ويصدرونه إلينا والى البلدان الأخرى . وتحولت وسيلة الطاقة التى تدفع القطارات من بخار إلى كهرباء وقد تعددت أنواعها ، كما تعددت الخدمات التى تقضى بها وفى مقدمتها حمل الرسائل البريدية التى تقضى بها حاجات المواطنين من بلدة إلى أخرى بعد أن كانت الحيوانات هى التى تتولى هذه المهمة الاجتماعية . ولكم كتب الأدباء والشعراء فيضا من إلهام القطار الذى يحقق التواصل وترنم المغنون والمغنيات بفضله فى لقاء الحبيب بحبيبه النائى . وقد استوحى هؤلاء المبدعون وقع عجلات القطار وهى تطوى الأرض طيا، وهو يحمل بريدهم أجمل معانى الحب والوصال وأنبل القيم الإنسانية . فما بين اللقاء والفراق حدود يتخطاها القطار الذى يزهو بأدائه الرسائل التى أودعه إياها أصحابها وكان السفير الصادق الأمين .

وتنبعث من غور الذاكرة الآن أغنية **محمد عبد الوهاب** الرومانسية ذات الجرس الطروب الشجى وقد صاغها الشاعر حسين السيد رفيق عبد الوهاب فى مسيرته الفنية ، ومنها هذه الأبيات

(**يا وابور قول لى رايح على فين ، يا وابور قول لى وسافرت منين**) .

وعلى الرغم من حلول القطارات والطائرات وما تلاها من وسائل ثورة الاتصالات محل الدواب والمركبات التى تجرها الخيل ، فما زالت هذه المركبات منتشرة فى بعض المدن والقرى باعتبارها وسيلة انتقال واتصال . ومن أرق الأغنيات التى استلهمت المركبة تلك الأغنية الشعبية التى يشدو بها سائقها قائلا : (**الجوز الخيل والعربية**) . وقد أبدع ملحن هذه الأغنية ولعله محمود الشريف فى صياغة العلاقة الحميمة بين الجوادين والمركبة وبين ركابها المحملين بالأشواق إلى أحبابهم ، فما أشبه هذه العلاقة بتلك التى يقوم بها التراسل البريدى .

وهناك أشكال أخرى مادية ومعنوية تمثل بريدا بين الإنسان وأخيه الإنسان ومنها الرسالة التى يضعها صاحبها فى زجاجة محكمة الإغلاق يلقى بها فى البحر لعله يصل عبر الأمواج إلى من يحب . وقد تتحقق هذه الأمنية بعد أعوام قصيرة أو طويلة كما أنبأتنا بعض الصحف . ومن هذه الأشكال البريدية أيضا ميزاب المطر ، واذكر أننى فى طفولتى كنت أنفخ فى ميزاب مركب على سطح منزل كان يقيم أعلاه أحد اصدقائى مناديا عليه فيسمعنى ويجيب مستعملا الوسيلة نفسها ،وكأن الميزاب حامل بريد .

وليس ادل على جلال الرسالة التى يقوم بها البريد من أن كلمتى رسالة ورسول ومشتقاتها أسماء وأفعالا من أكثر الكلمات التى وردت فى القران الكريم ، وكذلك الصور البلاغية والقصصية التى عبرت عن التواصل الإنسانى . كما يعد أدب الرسائل من أروع أبواب الأدب فى مختلف اللغات لما تضمنه من قيم إنسانية أخلاقية وجمالية وأهم تلك الرسائل فى التاريخ الإسلامى هى تلك التى بعث بها النبى صلى الله عليه وسلم إلى ملوك البلاد المجاورة لشبه الجزيرة العربية يدعوهم فيها إلى دين الله الحق ورسائل الخلفاء إلى الولاة أو إلى القادة العسكريين مثل رسالة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص وهو فى طريقه إلى فتح مصر ، و التى لم يفتحها إلا بعد أن تجاوز الحدود خشية ان يكون الخليفة قد أمره بالعدول عن الفتح إذا لم يكن قد تخطى تلك الحدود . ومن الرسائل التاريخية أيضا رسائل الزعماء والرؤساء إلى شعوبهم أو إلى المجالس النيابية للإبلاغ عن خططهم السياسية وغيرها ، ورسائل القادة إلى جيوشهم . ويبلغ أدب الرسائل ذروته فى الرسائل المتبادلة بين الفلاسفة والآباء والشعراء بعضهم وبعض فمنها ما هوآية فى الإبداع لتصويرها خلجات النفس الإنسانية فى مختلف أحوالها .

المبحث الثانى

البريد فى القصص العالمية والعربية

تتعاقب العصور زمنا بعد آخر ويظل البريد مستمرا فى أداء رسالته الإنسانية مطوراً ومجدداً لها تحقيقا لمصالح الأفراد والجماعات التى يتبادلونها على كوكبهم الأرض وما بين هذا الكوكب وبين السماء ، ويواكب الشعراء الروائيون والفنانون التشكيليون تلك المسيرة البريدية بإبداع المعانى التى يستلهمونها من الرسائل ليخاطبوا بها الكبار والصغار حثا على الفضائل التى تمجدها هذه الرسائل . وفى الأدب العالمى نماذج مضيئة منها كتبها او رسمها أولئك المبدعون . ومنها قصة (مؤتمر الحيوانات) للأديب الألمانى ايريسن كيستنر عن فكرة الكاتب بيللا ليبمان ، والرواية مزودة برسوم للفنان فالتر ترير ، وقد ترجمتها الكاتبة هدى أحمد عيسى ، وقالت فى مقدمتها للكتاب إن مؤلفه كان يستعير قالب الكتابة للأطفال ليبعث فى الكبار النقاء و البراءة التى فقدوها بعد فداحة ما تطورت إليه الأمور منذ كتابة هذه القصة عام ١٩٤٩ أى بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها بأربعة أعوام .

وتبدأ القصة باجتماع عدة حيوانات هى الاسد الويز ملك الغابة والفيل اوسكار والزرافة ليوبولد عند بحيرة التشاد فى شمال أفريقيا للتشاور حول ما ينبغى عمله حيال الكوارث التى اصابت الجنس البشرى بسبب الحروب والثورات والاضطرابات والمجاعات التى كان الأطفال أول ضحاياها . وتسخر الحيوانات من البرقية التى بلغت إسماع العالم وهى إخفاق مؤتمر وزراء

الخارجية فى باريس بعد عديد من الجلسات . وسارع الفيل إلى الهاتف فحجز ست مكالمات خارجية مع اخيه المقيم فى أمريكا الجنوبية ومع الدب فى القطب الشمالى والفأر فى أسيا ومع الثور فى امريكا الشمالية .. وأدت طيور اللقلق والبشروش عاملات الاتصال بمكتب البريد العمومى المصرى عملها الذى فاق طاقتها حتى إنها أخطأت فى بعض التوصيلات ولكن كل شئ فى النهاية تم على ما يرام.

وقال الفيل فى الجمع الذى احتشد من كافة أركان المعمورة إن بنى آدم يعقدون مؤتمرا بعد مؤتمر ولا يصلون إلى أية نتيجة ، واقترح ان نقوم نحن بعقد مؤتمر لنا نحن الحيوانات بعد أربعة أسابيع يجتمع فيه كل نوابنا فى برج الحيوانات ، وجلست طيور السنونو على امتداد البصر فوق أسلاك التليفون الإقليمية تنقل البث إلى كل بلاد الأرض . وانتشرت الآلاف من الحمام الزاجل فوق الجبال والبحار تحمل فى عنقها علبا صغيرة كتب بداخلها (المؤتمر بعد أربعة أسابيع من اليوم فى برج الحيوانات) . وانتشر الخبر حتى بلغ أعماق المحيطات حيث تعيش مخلوقات عجيبة اتخذتها موطنا لها . وقبل ان يعلم احد من البشر كانت كل الحيوانات قد وصلها الخبر عن طريق مختلف وسائل البريد ، فاجتمعت واختارت لكل نوع منها نائبا عنها فى المؤتمر المزمع عقده . لقد غدوا كما كانوا قبل الطوفان العظيم عندما أرسل إليهم نوح قوما يطلب منهم ان يأتوا أزواجا إلى سفينته .

وسافرت برا وبحرا وجوا إلى حيث عقد المؤتمر ، وأخيرا وصل رجال الصحافة والإذاعة والتلفزيون وأجروا حوارات مع نواب الحيوانات .

وانتهت الوفود إلى إعلان نص الاتفاقية التى وقعها رؤساؤها وهو يقتضى بإلغاء كل الحواجز وحرس الحدود والجيوش وكل أسلحة القصف والتفجير ، على أن تقوم الشركة وحدها بحفظ الأمن ولا تتسلح إلا بالأقواس والسهام ، وعدم استخدام العلم والتكنولوجيا إلا لمصلحة الإنسان ، وتخفيض عدد المكاتب والموظفين وخزائن الملفات إلى الحد الأدنى لأنها وجدت لخدمة الإنسان وليس العكس ، وان أجور المعلمين ستكون هى الأعلى لان تربية الأطفال حتى يكونوا أدميين بحق هى أسمى وأصعب مهمة .

وتنتهى هذه القصة التى تروق للصغار والكبار والتى كتبها الأديب الالمانى ايريسن كيستنر بعنوان "(مؤتمر الحيوانات)" بالفقرات الآتية :

(ولما علم الناس عن طريق المذياع أن رؤساء الدول رضخت لمطالب الحيوانات ووقعت على اتفاقية السلام الدائم ، عم البشر والفرح كل مكان ، حتى إن محور الأرض تحرك نحو سنتيمتر واحد ، وعندما علم الآباء والأمهات أن أطفالهم سيعودون ، بمجرد أن تزال علامات الحدود ، سارعوا إلى الحدود وحطموا كل الأعمدة والحواجز حتى تحولت إلى شظايا .

فى مكان الحواجز القديمه وضعوا اقواسا واكاليل من الزهور ، وقد ساعدتهم الشرطه وتصافح جميعُ وبدأ الأطفال فى العودة واحدا تلو الأخر ، وعبرت الفرحة عن نفسها بالأحضان الضحكات كمالم يحدث من قبل فى العالم . وعندما أقبل الرؤساء فى أثر الأطفال قوبلوا هم يضا بالأحضان والعناق وتدفقت العواطف وفاضت تغمر الأرض والفضاء جميعا ونجح مؤتمر لحيوانات فى أداء رسالته بجميع أنواعها هنا تختم قصة (مؤتمر الحيوانات) التي يؤدى فيها لبريد رسالته السامية ،وهى تدرج فى عداد أدب المدينة الفاضلة مثل قصة(حى بن يقظان) لإخوان الصفا وغيرها من الآثار الأدبية التى تتطلع إلى عالم لا قهر فيه ولا طغيان ، عالم يسوده التواصل والتعاون الانسانى ويضطلع فيه البريد بمهمته لتحقيق هذه القيم السامية .

قصص من الأدب العربى الحديث

نموذج من هالة فهمي

تحت عنوان (عم يونس) و (حامل الفرح) و أقاصيص أخرى للأطفال وإن تذوقها الكبار كتبت الأديبة هالة فهمى عدة نصوص كان من شخصياتها المحورية (عم يونس) من خلال ذكريات طفولتها ورؤاها فى الحاضر أيضا . وهى ترسم فى القصة الأولى صورة هذا الرجل النبيل فى سترته ذات اللون " الكاكى " راكبا دراجته طائفا حول المنازل مسلما ما يحمل فى حقيبته من خطابات أو برقيات إلى المرسل إليهم . بيد أن الرسالة الموعودة التى كانت نيفين جارة الراوية وصديقتها لم تصل رغم طول الانتظار ، وكان عم يونس يقول لها كل مرة وهى تسأله : (يمكن بكرة يا ابنتى) : وذات صباح قال والد الراوية لها : استشهد والد نيفين فى قناة السويس خلال معارك الشرف والكرامة وحينئذ أقسمت الراوية أن تعير والدها لصديقتها اليتيمة ليكون لها أبا مثلها ، ومن حقها ان تقول له " بابا " ان أرادت وتختم هالة فهمى هذه الأقصوصة الرقيقة بالعبارات الشجية الآتية :

(منذ ان علمت نيفين خبر استشهاد والدها لم يعد عم يونس يرفع عينيه إلينا .. يمر سريعا بدراجته .. مرت أيام وشهور وسنوات ولا نعرف هل كان يأتى ولا نراه أم تبدل ولم نصادق ساعى البريد الجديد ؟ أم لأننا لم نعد نستلم الخطابات بعد أن وضع صندوق للبريد لكل شقة أم ماذا ؟ إلا أن صورة عم يونس التصقت بأرواحنا ، ويوما بعد يوم سكنت ضمائرنا ولم نعد نراها إلا ممثلة فى أشخاص آخرين دون " البدلة الكاكى " وربما كلما نظرت إلى السماء الصافية ورأيت سرب حمامات يطير قلت لعلها عم يونس ورفاقه . أليسوا حماما زاجلا ؟ ومن معين الطفولة أيضا تقص علينا هالة فهمى أنباء الرسائل التى كان يرسلها والدها المجند بالقوات المسلحة من الميدان إليها يبثها أشواقه ويدلى إليها بنصائحه . وكيف تماهى هذا الأب

(أبى فى الميدان إذن ، وقد تعلقت روحى وأنا فى سن التاسعة برسالة وارفة الطمأنينة يجود بها رجل البريد كما لو كانت منحه من السماء . لقد تعلقت بالرسالة وبحب من يحملها إلى ، وأقمت علاقة ضمنية روحية بينى وبينه وبين أبى نفسه .

وانتظرت قطرة الندى هذه تبل جفاف حلقى القلق ونفسى المضطربه . وطال انتظارى شهورا حتى انشق هواء الصمت فجأة صباح يوم السبت بإسمى يتردد من أسفل العمارة كما ترددت أسماء كثيرة من قبل ، هل هو ذا الصوت الطيب المطمئن غالبا والمقلق أحيانا وحامل الأخبار دائما . وقد آن لاسمى الصغير أن يتردد على لسانه ويالغرابة هذا الترديد .. إنه لم يكن باسم أبى كما اعتدنا ولا حتى باسم أخى هشام إنه أنا . هل أقفز إليه من الشرفة طائرة بجناحى لهفتى ؟ هل أمد ذراعى من الدور الرابع إلى الأرض لالتقط خطاب أبى ؟ هل أطوى السلم كما يطوى البساط فى برهة لأحتضن خبر البطل من أرض الميدان ؟

وتمزج هالة فهمى فى هذه القصة بين الفن القصصى والسيرة الذاتية وبين المقال راسمة صورة مضيئة لرجل البريد المثالى متمثلا فى عم يونس إذ تقول : (أحببت عم يونس ، صوته اعزب عندى من تغريد العصافير ، وادفأ من حكايات جدتى عن الشاطر حسن ... قصص كثيرة أخرى حملت باشواقى خبائتها بعناية فى هذا الصندوق الأحمر الذى ألقى فيه خطاباتى ، وكنت اجهل كل شئ عن آليات نقلها .. لا أعرف الصلة بين الصندوق الأحمر وبين عم يونس ، كيف يذهب وكيف يعود الرد إلى ، كبرنا وعرفنا أن عم يونس ليس بديلا عن الحمام الزاجل كما قالت يوما جدتى من خلف ضحكتها البيضاء : (يونس حمامة زاجلة) . وكان قد أهدانى بعض الطوابع البريدية .. عرفت أيضا أن هناك كثيرا من الرجال كلهم مثل عم يونس يؤدون عملهم فى صمت ، ولا ينتظرون إلا بسمة يرونها فى تجوالهم الشاق .

ثم تعقد هالة فهمى مقارنة بين عم يونس (البوسطجى) حين شاهدت أول مرة الفيلم السينمائى الذى يحمل هذا العنوان ، وبين (عباس) بوسطجي يحيى حقي فتقول : كرهت هذا الرجل ونفرت منه ، ووقعت فى حيرة : هل الرجل الذى كان يحمل الفرح إلى فى رسائل أبى وأنا صغيرة ثم خطيبى وأخى المسافرين هو نفسه الذى تسبب فى قتل هذه الفتاه ؟ صببت غضبى على (البوسطجى) حتى كبرت بضع سنوات أخرى ، وأشرقت شمس المعرفة داخلى ، وتكونت نطفة الرؤيا الفلسفية للأشياء ومن ثم الموقف الاجتماعي الذى كانت ضحيته الفتاه .

وأدركت ان ذلك (البوسطجى) شاذ عن القاعدة فى حفظه لأمانة عمله ، وأن التقاليد البالية والقهر والخوف لابد أن يوائمها مجموعة من ضعاف النفوس كعباس بطل (البوسطجى) ليحيى حقى ونقيضه (عم يونس) الرجل النبيل المكافح .

وقد يستخدم بعض الكتاب صيغة الرسالة أسلوبا لقصصهم بمعنى أن يسرد الكاتب الحدث الذى يرّيد التعبير عنه فى شكل رسالة يوجهها إلى من يحب مثل أب أو أم أو ابن أو ابنة أو صديق أو صديقة أو غيرهم .

ومن هؤلاء الأدباء القاص والروائي فوزى شلبى فى قصته القصيرة (خطاب) التى يروي فيها لأحد أصدقائه حكاية عن ابنته "ياسمين"التى دخلت المدرسة بعد رحيله بفترة وإنها تذهب كل يوم وتقف فى طابور الصباح لتهتف بحب مصر وأنه يحاول قدر استطاعته أن يمنعها من الفرجة على التلفزيون الذى يقدم بأناقة وابتسامه الخريطة العربية المستباحة وعلى الرغم من ذلك يقول بسخرية هكذا - ترى - إننا بخير ، ويستطرد فى الرسالة الى صديقه قائلا : (أما ما يثير قلقى يا صديقى العزيزفهو أن الصغيرة " تغريد " التى جاوزت الرابعة بشهور اعتادت هذه الأيام أن تلعب لعبة جديدة تبدأ باستدراج أكثر من طفل : آيه ونهال أختيها ومعهن أبناء عمومتها وسماح ابنة خالتها ، وبخفة تحسد عليها تجمع عددا آخر من ذرية الجيران - وهم كثر - كما تعلم ، وتأمر الجميع بالوقوف صفا واحدا ثم الجلوس بعد رفع اليدين متشابكين على الرأس . والصغار يفعلون كل ما تطلب فى طاعة تامة واستسلام عجيب ، بينما هى كما الطاووس تقف فى شموخ ، وملامحها تتلون بمزيج من تعبيرات العظمة والكبرياء - وغالبا الصلف والغرور - تماما كما رأت الضابطة الأمريكية التى تكرر ظهورها على الشاشة الصغيرة وهى تسوق أسرى (حرب الخليج) الذين يفترشون الصحراء "العراقية /الكويتية "، وبلوغا باللعبة درجة الكمال تأمر الشقية " تغريد "أترابها الصغار بالهتاف : (أمريكا .. أمريكا !!) .

وتنتهى القصة بالسطور الآتية الدالة على فظاعة بوش الأب وعصابته فى غزوهم الوحشى للعراق ، وإصابتهم الأطفال الأبرياء ممن يشهدون منظر المجندة الأمريكية فى التليفزيون وهى تزهو بجريمتهم الشنعاء .

(واكتشفت أن ياسمين باتت حائرة بين ما ترددة كل يوم فى طابور الصباح بالصف الأول الابتدائي من هتاف : تحيا مصر .. تحيا مصر ، كما علمها الأستاذ ، وبين ما تسمعه فى البيت والشارع . واليوم فقط رأيت فى عينيها أنها عادت بعد أن وقفت فى الطابور وحاولت أن تحرك شفتيها لكنها لم تنطق .

هذه هى الرسالة التى بعث بها الكاتب إلى صديقه وختمها بالعبارة الساخرة الآتية :

(هكذا ترى أننا جميعا ولعلك تكون بخير !! المرسل)

يكتب الكاتب فى استحياء عن الطابع البريدى ودوره فى تعميق الوعى الوطنى والقومى ، فيخلع فى قصته (زيارة بطابع البريد) صفة الإنسان على صورة أحد العظماء المرسومة على الطابع وكان صاحبها قد خرج منها ومثل أمام رواة القصة حيا يرزق ويتبادل معهم الحديث وهم يعملون فى مصنع الغزل والنسيج ويستهل الكاتب قصته هذه بالسطور الآتية : (خرج إلينا من طابع بريده المميز بصورته وناداانا ، دهشنا جميعا ، عاد ينادى من جديد ، طلب منا أن نتوقف عن العمل لحظات وان نأتي إليه ، نلتف حوله كى نتعرف عليه عن قرب ، زادت دهشتنا أكثر ولم يذهب إليه احد ، ابتسم لنا ، اتجهنا نحوه بعد وقت من التفكير ، آثرنا ان تبقى بيننا وبينه وبين طابعه البريدى مسافة مترين أو متر واحد على الأقل ، لقد خشينا ملامسته أو ملامسة طابعة البريدى ، فمن يدرى ماذا يحدث لو تلامسنا أو تصافحنا . ازدادت ابتسامته فبانت أسنانه البيضاء الناصعة قائلا : لكننى أو د نيل شرف مصافحة أيديكم الكادحة . تراجعنا جميعا إلى الخلف خائفين : هو !! ، لا لا .. هذا حق !! عفريت ؟ النجدة . ليس هذا طابعا بريديا .. لا .. النجدة . راح يدور حول الماكينات ، كلها حديثة وتعمل بالكمبيوتر ، فعرف أن تقدما كبيرا قد حدث بعد وفاته . ويبدو أن الماكينات كانت سعيدة به ، فلقد ارتفع صوتها وزادت آليتها وكثر إنتاجها .. مال على إنتاج واحدة ، أخذ قماشها بين يديه ومرره على خده ، القماش ناعم رطب تذوقه بطرف لسانه : قطن مائة فى المائة ، بدا أكثر سعادة ، نظر إلينا فى شموخ ورفعة : عشتم وعاشت أيديكم يا أحفادى المكافحين .. صافحناه ، حثنا جميعا : الله اكبر ، الله اكبر . حملناه على أكتافنا ، خرجنا به إلى طابعه البريدى المميز بصورته ، رحنا ندور ونطوف به وبطابعه شوارع وعنابر الشركة الكبيرة الواسعة ، كان مبهورا مزهوا بجمال شركة مصر للغزل والنسيج التى كبرت وصارت أضعاف ما كانت . خرجنا به إلى استاد غزل المحلة ونحن نهتف باسمه (طلعت حرب ، طلعت حرب) : ضحك بأعلى صوته ، بدا كأنه طفل سعيد ، وبخفة ورشاقة ودون أن يشعر به أحد هبط من فوق أكتافنا ، توجه إلى طابعه البريدى ، صعد إلى مكانه ، لوح لنا بيمناه وانطلق فى الهواء ، ونحن مازلنا نهتف باسمه ، وكأننا نحلم حلما جميلا لم نفق منه إلا على صوت صافرة انتهاء وردية الليل ، ونحن أكثر سعادة ونشاطا.

هكذا انتهت هذه القصة التى تصلح للصغار والكبار ، فهى تمجد رجلا عظيما نذر حياته للعمل فى سبيل وطنه ، فشيد مصانع الغزل والنسيج لأول مرة فى تاريخ الصناعة المصرية وأسس بنك مصر وفروعه ، كان بذلك قدوة حسنة لجيله ولأجيال آتية كما تبين القصة قيمة العمل بوصفه قاعدة الانطلاق لتحقيق الأهداف المنشودة ، وضرورة تحديث الآلات كى نستطيع ان ننافس الدول الصناعية الكبرى .

استوحى طابع البريد ايضا الكاتب فريد معوض ، فادار حوله قصه قصيره بعنوان (حكايه طابع بريد) تدل على حسه القومى وتعاطفه مع الشعب الفلسطينى البطل وهو يبدأ قصته هذه بالسطور الآتية : (كان مجرد طابع بريد ضمن مجموعة طوابع فى مكتب بعيد . لكن بعد أن اشتراه عبد الرحمن أصبح طابعا مستقلا . قال طابع البريد لنفسه : يبدو أنى اقتربت من تحقيق حلمى . كان طابع البريد من تلك الفئة التى تسمح له بالسفر إلى إحدى البلاد العربية ، يركب الطائرة متصدرا الرسالة التى التصق بها . لكن ترى إلى أين سيطير هذه المرة ؟ لقد حلم طويلا منذ تمت طباعته أن يسافر إلى هناك إلى فلسطين حيث المسجد الأقصى المبارك ، ليرى ذلك الوطن الجميل ، ويتأمل هؤلاء الأطفال الذين يقفون فى وجوه الدبابات غير خائفين . لكنه يعرف منذ فترة بعيدة أن كل الطوابع القديمة والجديدة مازالت ممنوعة من السفر إلى هناك لذا فقد استبعد الطابع أن يكون سفره هذه المرة إلى فلسطين . لكن على أيه حال ما دام قد خرج من قائمته التى نامت فى مكتب البريد فسوف يسافر إلى اى بلد عربى وهناك لن يجد نفسه غريبا .

وضع عبد الرحمن الطابع فوق الرسالة ، بدا الطابع جميلا رائعا ، دقق فى الرسم الموجود عليه فرأى صورة السندباد فابتسم قائلا : ما أروع السندباد يلف كل البلاد ، ثم أطرق حزينا : لكن متى يصبح بوسعه أن يذهب إلى فلسطين ؟ وهنا تذكر صديقه غسان الذى التقاه منذ أعوام ، كانا يطوفان حو ل البيت الحرام ، وفى مكة تعارفا وتآلفا وصارت بينهما مودة لا تنتهى ، يومها سأله عبد الرحمن ؟ أين تسكن يا غسان ؟ قال له : فى فندق بمكة اسمه فندق فلسطين . وعاد عبد الرحمن إلى مصر وغسان إلى بلده فلسطين . عاد عبد الرحمن يدقق فى منظر الطابع وقال نعم ياله من رائع ، لماذا لا أكتب رسالة إلى غسان ؟)

وأرسل عبد الرحمن خطابا إلى فندق فلسطين حيث يتوافد الفلسطينيون كل عام ، وقد كتب على غلافه اسم غسان كاملا وعنوانه فى غزة ، طالبا من مدير الفندق ان يسلم هذه الرسالة إلى أى فلسطينى وسوف تصل إن شاء الله – وتنتهى القصة بالسطور الآتية :

(راح عبد الرحمن يخط رسالته إلى غسان والطابع يتابعه فى فرح ، وهبت نسمة هواء لطيفة من النافذة ، فتقافز الطابع مع غلاف الرسالة فرحا وكأنهما يتهيآن للطيران .

وها هو عبد الرحمن يكتب العنوان بجوار الطابع : السعودية ، ثم واصل العنوان حتى وصل إلى عبارة فندق فلسطين . ولم يصدق الطابع نفسه وعبد الرحمن يضع الرسالة فى صندوق البريد حتى تشق طريقها من مصر إلى السعودية وتصل إن شاء الله إلى غسان فى البلد الجميل فلسطين) .